

تفسير ابن كثير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً^ج وَعَلِّمُوا أَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ؛
ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ
منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة ، والطائف ، واليمن واليمامة ، وهجر ، وخيبر ،
وحضرموت ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب
في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس
إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك
ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال ، وكان ذلك سنة تسع من
هجرته ، عليه السلام . ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع . ثم عاجلته المنية ،
صلوات الله وسلامه عليه ، بعد الحجة بأحد وثمانين يوما ، فاختره الله لما عنده . وقام
بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر ، رضي الله عنه ، وقد مال الدين ميلا كاد أن

ينجفل ، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد ، وثبت الدعائم . ورد شارد الدين وهو راغم .
ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، وبين الحق لمن جهله
، وأدى عن الرسول ما حمّله . ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة
الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى
وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك رسول
الإله . وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد
المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع
الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقا وغربا . وحملت إليه خزائن الأموال من
سائر الأقاليم بعدا وقربا . ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي . ثم لما مات شهيدا
وقد عاش حميدا ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار . على خلافة أمير المؤمنين [
أبي عمرو] عثمان بن عفان شهيد الدار . فكسا الإسلام [بجلاله] رئاسة حلة سابغة .
وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة ، وظهر الإسلام في مشارق
الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله

غاية مآربها ، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار ،
امثالاً لقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله تعالى : (
وليجدوا فيكم غلظة) [أي : وليجد الكفار منكم غلظة] عليهم في قتالكم لهم ، فإن
المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن ، غليظا على عدوه الكافر ، كما قال
تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [
المائدة : 54] ، وقال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء
بينهم) [الفتح : 29] ، وقال تعالى : (ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم
([التوبة : 73 ، والتحريم : 9] ، وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
: " أنا الضحوك القتال " ، يعني : أنه ضحوك في وجه وليه ، قتال لهامة عدوه . وقوله : (
واعلموا أن الله مع المتقين) أي : قاتلوا الكفار ، وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله
معكم إن اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه
الأمّة ، في غاية الاستقامة ، والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ،
ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار . ثم لما وقعت الفتن

والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها ، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام ، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ، ثم لم يزلوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد . فكلما قام ملك من ملوك الإسلام ، وأطاع أوامر الله ، وتوكل على الله ، فتح الله عليه من البلاد ، واسترجع من الأعداء بحسبه ، وبقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين ، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم ، إنه جواد كريم .